كتاب تلقي النص في الخطاب النقدي العربي المعاصر

منشورات ضفاف/ بيروت ، ومنشورات الاختلاف / الجزائر

الدكتور حامد مردان السامر/ كلية الآداب / جامعة البصرة

مقدمة الكتاب فقط

إنفتح الفضاء المعرفي في العقود الأخيرة من القرن الماضي انفتاحا معرفيا واسعا ، وقد أثمر هذا الانفتاح أسسا معرفية حداثية مغايرة ، دأبت إلى إعادة إنتاج النظم المعرفية السائدة عبر إيقاع معرفي متنام يسعى إلى تثوير السواكن المعرفية وخلخلة الأسس المعرفية السائدة ، وتفكيك مقولاتها وأنساقها ، مما أسهم في إنتاج ثقافة حداثية مغايرة أطلق عليها مفكرو الحداثة ثقافة النص، وهي ثقافة اعتمدت التعددية بدل الأحادية، والإمكان والاحتمال بدل الثبات والممارسة، والتجريب بدل الأحكام المعيارية المطلقة ، والنسبية عوض الشمول والإطلاق .

وتعتمد الثقافة الإنسانية اعتمادا رئيسا على التواصل ، وان هذا التواصل لا ينجز إلا عبر النصوص ، فالإنسان كائن نصي ينتج نصوصا ، يزورها ، يتلاعب بها ، وتتلاعب به ، يشكلها وفق

أهدافه الإيديولوجية ، يرسلها للتأثير في الآخرين ، فالتمظهر الاجتماعي للإنسان لا يتجلى إلا عبر النصوص بدءا من النصوص الإبداعية في القص والقصيد ، مرورا بالنصوص الإعلانية والاجتماعية والسياسية والفلسفية ، وانتهاء بالنصوص السمعية والبصرية ، وان أي تحليل سيميولوجي لأنماط التواصل يوضح بشكل جلي التنوع الفكري داخل المنظومة الثقافية ، كما أن هذا التحليل يحيل بصورة ما أو بأخرى إلى تحليل أنساق الثقافة القائمة على أنماط التواصل المتباينة ، وبناء على ذلك يمكن القول ان ثمة علاقة جدلية قائمة بين النص والثقافة ، لأن الأبنية الثقافية لاتظهر إلا عبر النصوص ولا تتجلى إلا بها .

إن البحث في النص لم يعد قضية أدبية أو لسانية بقدر ماهو قضية فكرية تكشف عن مرحلة من مراحل تطور الفكر الغربي ، وان الثقافة النصية لم تكن وليدة ظرف معرفي طارئ ، أو مزاجية فكرية

منفعلة ، أو اجتهاد إنساني عابر ، وإنما كانت محصلة طبيعية لتطور الفكر الإنساني أي الانتقال من تفسير ربط الظواهر بالأسباب الخارجة عنها إلى اقتحام هذه الظاهرة ومعاينتها من الداخل وكشف أنساقها الداخلية وطريقة تشكلها ، وآليات اشتغالهامن دون إحالتها إلى تأثير العنصر الخارجي ، وقد أربك هذا الانتقال الأسس المعرفية السابقة وزحزح بنيتها المعرفية الناجزة ، مما أدى إلى إنتاج مقولات معرفية حداثية شكلت فيما بعد حيزا واسعا من قاموس الحداثة الغربية .

من هنا أدرك الباحث طرافة الموضوع وأهميته في الوقت ذاته ، فهو يتناول مفصلا حيويا مهما من مفاصل الحداثة الغربية وجدليتها المتنامية ، كما انه يتعرض إلى التطورات التي طرأت على منظومة الحضارة الغربية عبر التمظهرات اللغوية التي كشفت النقاب عن هذا التطور ، لذا حاولنا أن نلج حقلا معرفيا متغيرا لم تستقر طروحاته الفكرية ، ولم تنته مقارباته ، ولم تنضج مغامراته ، فهو في صيرورة مستمرة لا تنتج إلا ممارسة وتجريبا ، لذا يمكن القول ان المشروع النصي في الثقافة الغربية بدأ إشكاليا وظل مستمرا في إشكاليته لم تتبلور طروحاته بشكل حاسم .

ويحاول الباحث رصد انتقال المشروع النصي الغربي إلى الثقافة العربية ويحاور الأمثلة المطروحة الناتجة عن التقاء الثقافة العربية بالثقافة الغربية عبر ترجمة المشروع النصي ، فكيف تلقى الخطاب النقدي العربي المعاصر هذا المشروع ؟. وكيف تعامل مع إشكاليته ؟. وهل حاول ذلك الخطاب تقليص مساحة الإشكال أو انه أسهم في توسيع تلك المساحة ؟. وهل استهلك الخطاب النقدي المقولات النصية أم حاول إنتاج مقولاته النصية الخاصة ؟ . هذه الأسئلة المطروحة يحاول الباحث رصدها وتحليلها ومحاورتها .

أما المقاربة التي يعتمدها البحث فهي تنطلق من جمالية التلقي وتفترق عنها في الوقت ذاته، فهي تنطلق من التلقي عبر حدود الحوار بين القارئ والنص ، وتفترق عنها انها كانت تلقيا فكريا وليست تلقيا جماليا ، فهي لا تتعامل مع النصوص الإبداعية بقدر ما تتعامل مع النصوص الفكرية – النقدية التي تحاول محاورتها واستنطاق مكوناتها ، والكشف عن فجواتها ، ورصد تناقضاتها ، والحفر في مرجعياتها الفكرية التي انطلقت منها . لذا ارتأى البحث تغييب الأصول الفكرية لجمالية التلقي إيمانا منه

بأن هذا المنهج أصبح منهجا معروفا أسهب فيه النقاد والدارسون فلا حاجة الى استنساخ كتاباتهم واجترار مقولاتهم .

يتكون البحث من فصول أربعة يسبقها تمهيد وتتلوها خاتمة ، ويتعرض التمهيد إلى إشكالية النص في الثقافة الغربية وتداخل هذا المفهوم مع الخطاب والعمل الأدبي .

وتناول الفصل الأول نشأة النص في اللسانيات الغربية ، فتتبع نشأة هذا المفهوم وتطوره عبر مجموعة من الدراسات اللسانية التي تجاوزت نظام الجملة إلى النص ، ويتألف هذا الفصل من ستة مباحث تعرض الأول إلى نشأة مفهوم النص ، والثاني إلى نشأة علم النص، والثالث إلى تاريخ ظهور المصطلح والرابع إلى المفهوم اللغوي للنص ، والخامس إلى المفهوم التداولي للنص والسادس إلى علاقة علم النص بالبلاغة .

أما الفصل الثاني فتحدث عن نشأة النص في الدراسات الأدبية الغربية ، عبر طروحات جوليا كرستيفا ، ورولان بارت ، وجان كوهين ، وميشال ريفاتير، وجاك دريدا وغيرهم ، وقد حاولنا أن نعاين نشأة النص في الثقافة الغربية عبر محورين ، كان الأول لسانيا ، وهذا ما تعرض له الفصل الأول ، بينما كان المحور الثاني شعريا وهذا ما تعرض له الفصل الثاني ، ويتألف هذا الفصل من خمسة مباحث ، تصدى الأول إلى المهاد التاريخي لنشأة النص ، والجذور المعرفية لهذا المفهوم ، أما المبحث الثاني فتحدث عن نشأة نظرية النص في الخطاب النقدي الغربي ، ومساهمة النقاد في تأسيس هذه النظرية وتطويرها ، وحاول الباحث التعرض إلى أهم محاور هذه النظرية التي يراها متجسدة في مفهوم النص ، وفي النصية ، وفي الممارسة النصية .

وبعد التطرق إلى الجانب النظري للنص في الثقافة الغربية ، انطلق البحث إلى الجانب الإجرائي عبر رصد انتقال المفهوم إلى الثقافة العربية ويتجسد ذلك في الفصلين الثالث الرابع ، وقد حاول الباحث تصنيف تلقي النص في الخطاب النقدي العربي إلى التلقي الخارجي للنص والتلقي الداخلي له.

والفصل الثالث يرصد التلقي الخارجي للنص وفق مباحث ثلاثة ، حاول الأول فيها معاينة تأسيس النص في الخطاب النقدي العربي من خلال طروحات النقاد العرب الذين تباينوا في تلقيهم للمفهوم ، فقد رفض بعض النقاد وجوده في الثقافة العربية ، بينما حاول بعض النقاد تأسيس ذلك المفهوم بالاستناد الى

الجهود النقدية والبلاغية التراثية . بينما تصدى المبحث الثاني إلى إشكالية النص والخطاب ، أما المبحث الثالث فتناول مصطلح علم النص في الكتابات العربية .

وإذا كان الفصل الثالث يرصد التلقي الخارجي للنص عبر مباحثه الخارجية ، فان الفصل الرابع يرصد التلقي الداخلي للنص عبر مباحثه الداخلية ، فتناول المبحث الأول إشكالية مفهوم النص في الخطاب النقدي العربي ، وتصدى المبحث الثاني الى بناء النص في الخطاب النقدي ، أما المبحث الثالث فقد تقصى الممارسة النصية في الخطاب النقدي وتباين المقاربات النقدية التي تبناها النقاد العرب في معاينتهم للنصوص الإبداعية .

ولعل أبرز العقبات التي واجهت البحث هي قلة الطروحات النصية على الرغم من وفرة الدراسات النصية وتتضح هذه المفارقة في أن أغلب الكتابات النصية قد تتهرب من مواجهة الإشكالية النصية ، فهي إما أن تتجاوزها أو تتعرض لها بشكل مختزل وأحيانا تعيد استهلاك الطروحات النصية السابقة من دون استنطاقها ، بينما تحاول بعض المحاولات ربط النص بالمنجز التراثي العربي ، أما القلة من المحاولات الجادة فإنها سعت إلى مواجهة الظاهرة النصية واختراقها من الداخل وفحصت مرجعياتها ومكوناتها وغاياتها ، وهذه المحاولات هي التي إعتمدها البحث .

أما المصادر التي إعتمدها البحث فان أغلبها كان مترجما عن الانجليزية والفرنسية والألمانية ، مما شكل هاجسا لدى الباحث أن هذه الترجمات قد تكون التلقي الأول للنص في الثقافة العربية ، ولكن ترجمة النصوص مهما حاولت أن تبتعد عن النص المترجم فإنها تبقى قريبة منه ، بينما التلقي الذي يطمح إليه البحث يكمن في الحوار المبدع بين النص والقارئ ، وقد تعاني بعض المصادر المترجمة من الأساليب اللغوية الضعيفة حينا والمتكلفة حينا آخر ، لذا حاول الباحث أحيانا إعادة صياغة أنساقها كي تتلاءم ونسيج البحث .

ويقف خلف هذا البحث صوت كبير أسهم اسهاما فاعلا في إخراجه من الإضمار إلى العلن ، ومن الكمون إلى الظهور ، وحاور الباحث كثيرا في فصوله ومباحثه ، فتسللت أفكاره إلى مفاصل البحث حتى أصبح من الصعب الإشارة إليها ، ذلك الصوت هو د. ضياء الثامري المشرف على هذا البحث ، الذي تعجز مفردات الشكر عن الإيفاء بحقه ، فجزاه الله خيرا وجعله عونا للباحثين .